نظرية التطور

بين دارون والمفكرين الإسلاميين

الأستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي
وكيل كلية أصول الدين بالقاهرة

يربط كثير من الباحثين بين نظرية التطور عند داروين وعند بعض المفكرين المسلمين مثل إخوان الصفا وابن مسكويه وابن خلدون، إلى درجة أن بعض الباحثين لا يكتفي بالقول بوجود صلة ما بين النظريتين، بل يذهب إلى أن نظرية التطور عند المسلمين هي الأساس لنظرية داروين، أو على الأقل تجمع بينهما وجوه شبه كثيرة.

يقول العلامة «درابر»:

«تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب العرب، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها. فإن هذا الرأي مما يعلمه العرب في مدارسهم، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات العضوية والمعادن. والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها»(١).

واجتهد الأستاذ إسماعيل مظهر في إيراد فقرات مطولة من نصوص لإخوان الصفا، وابن مسكويه، والجاحظ، وابن خلدون، ليستنتج منها في النهاية أن هؤلاء ذهبوا إلى «نشوء بعض الأحياء من بعض(٢)»، وأنهم ذكروا كثيراً من المبادىء التي تعتبر الآن من الدعامات الأولية في مذاهب النشوء عامة(٣)، كما أشاروا إلى «أثر الطبيعة في الأحياء»(٤).

وقد أقام بعض الباحثين المقارنات بين التطور عند مفكري الإسلام وعند فلاسفة النشوء الداروينيين وانتهوا من هذه المقارنة إلى بعض النتائج التي يمكن قبول بعضها ومناقشة بعضها الآخر(٥).

ولذلك قصدت من هذا البحث الموجز إجراء دراسة مقارنة للعلاقة بين النظريتين.

ولكي يتسنى لنا الوصول إلى نتائج مأمونة في هذا الصدد، فإننا سنعمد إلى دراسة المبادىء الأساسية لدى الداروينيين والمفكرين المسلمين من واقع نصوصهم للخلوص إلى:

١ — مواضع الاتفاق والخلاف بين النظريتين.

٢ — مدى قرب أو بعد كل منهما من الإسلام.

١ — المبادىء الأساسية لنظرية داروين:

تقوم هذه النظرية على أساسين.

١ — نشوء الكائنات الحية وتطورها بعضها من بعض.

٢ — أن هذا النشوء والتطور تحكمه عوامل:

(أ) البيئة.

(ب) الوراثة.

(ج) الصراع من أجل البقاء.

(د) الانتخاب الطبيعي.

(أ) ولقد أكد «داروين» أن أنواع الكائنات الحية لم تخلق مستقلة

بل نشأت بعضها عن بعض خلافا لما كان يظن فى الماضى ، فالإنسان لم يخلق خلقا مستقلا منذ البداية إنسانا ، بل تحول عن مخلوق سبقه ، وهذا المخلوق تحول عن آخر أسبق منه وهكذا ، حتى تعود المخلوقات كلها فى البداية إلى « الأميبا » أو الخلية الأولى التى تكاثرت بعد ذلك وتطورت إلى سائر الأحياء فى خط طويل من التطور منذ ملايين السنين .

ولعل الذى جعل داروين يذهب إلى هذا ما رآه خلال رحلته البحرية حول الأرض على متن السفينة بيجل التى أتاحت له التأمل والنظر حيث شاهد الخصائص التى تجمع بين أفراد الكائنات الحيـــة مهما اختلفت أنواعها وأماكن وجودها فى بقاع الأرض وأزمنة هذا الوجود .

يقول : « من البين أن المولودى (الباحث الطبيعى) إذا تدبر أصل الأنواع وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية من الخصيات (الخصائص) المتبادلة ، وما بين أجنتها من التشابه واستيطانها رأى اقتسام الكائنات الحية بقاع الأرض وتوزعها فيها ثم تعاقب وجودها فى خلال الأزمنة الجيولوجية ، إلى غير ذلك من الحقائق العامة ، انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تخلق مستقلة منذ البدء ، بل نشأت كالضروب من أنواع أخر »(٦) .

كما يؤكد « فإنى بعد إذ أنفقت ما أنفقت من الوقت فى البحث وتقليب الأسفار ، وكثرة التأمل والاستبصار ، وبمـــا عرفت من الأحكام والاستنتاجات الجلى ، وبما لى من الثقة فى ذلك كله ، لا يمر بى خلجة من الشك فى أن ما كنت أقطع به كما قطع الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع خلق مستقلا بذاته خطأ محض .

وإنى لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول ، وأن الأنواع التى تلحق بما نسميه الأجناس اصطلاحا هى أعقاب متسلسلة عن أنواع

طواها الانقراض على نفس الطريقة التى تعتبر بهـا الضروب التابعة لأى نوع أعقابا متسلسلة عن ذلك النوع ذاته »(٧) .

ولعلنا نلاحظ هنا أن دراسات « داروين » وأبحاثه التى أدت به إلى القول بتطور الأميبا أو الخلية الأولى إلى هذا الكم الهائل من الكائنات التى تملأ الطبيعة ، إنما بدأت من هذه الخلية الأولى .

ولم يبين لنا « داروين » فى كتابه « أصل الأنواع » إجابة عن سؤال مهم هو : هل تطورت هذه الخلية الأولى هى الأخرى من شىء سبقها ؟

والواضح فى تصويره لهذه الخلية التى جعلها مبدأ التطور أنها لم تتطور عن شىء ، لأنها أدق من أن يسبقها شىء . هى خلية واحدة « بروتو بلازم » .

فكيف نشأت هذه الخلية الأولى إذن ؟

ولقد وعد « داروين » أن يضع كتابا بعد كتابه « أصل الأنواع » يضمنه المقولات المقرونة بالحقائق والأسانيد التى أقام عليها نظريته والتى لم يتمكن من تضمينها كتابه أصل الأنواع(٨) إلا أنه على حد علمنا لم يضع هذا الكتاب الذى كان ربما يكشف فيه عن ما قبل الحياة فى الخلية الأولى التى جعلها مبدأ أبحاثه .

ولذلك ظل موقفه من ما قبل الحياة فى هـذه الخلية موضعا لاجتهاد الباحثين واختلافهم حوله إلى مذاهب شتى .

ولقد حكى عنه « داونز » قوله :—

« لا أستطيع أن أدعى بأنى ألقى أقل بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العميقة ، فإن سر بداية الأشياء غير قابل للحل . أما فيما يتعلق بى شخصيا فإنى قانع بأن يكون موقفى هو موقف اللا أدرى حول هذا الموضوع »(٩) .

المهم أن الذى كان يعنيه هو التطور بعد ظهور الحياة ، وأسباب هذا التطور .

(ا) وأول أسباب هذا التطور عنده هو : البيئة نفسها . فاختلاف أفراد الحيوان وأنواعه راجع فى الحقيقة إلى تأثير العوامل البيئية وظروفها المتحدة أو المختلفة .

والملاءمة بين الكائن الحى وطبيعة البيئة التى يعيش فيها قد تؤدى إلى تشكيل صفاته وغرائزه ، بل وعقله وتفكيره بل إن هذه الملاءمة قد تؤدى إلى تقوية نوع وانقراض نوع آخر من نفس الحيوان ، وتحول نوع ثالث إلى نوع غيره .

يقول داروين :

« وإذا ألقينا نظرة تأمل على تباين الحيوانات والنباتات التى ارتقت وتحولت فى الأطوار الزمانية كافة بتأثير أشد البيئات اختلافا وأكثر الأقاليم تباينا ، انسقنا إلى الاعتراف بأن التحولية قد نشأت فى أنسال أنواعنا الداجنة لأنها تولدت متأثرة بظروف حياة غير متشابهة لما لابس أنواعها الأولية فى حالتها الطبيعية » (١٠).

ومن أمثلة هذا التأثير المتزايد للبيئة نلاحظ :

— « فى المناطق الباردة لا تستطيع الحياة إلا الحيوانات ذات الفراء السميك أما غيرها فيضعف تدريجيا ويموت وينقرض نوعه (١١)

وقد لاحظ «داروين» أن البيئة قد تضطر الحيوان إلى استعمال عضو أو إغفاله ، فالعضو الذى يستعمله الحيوان يقوى ويشتد ، أما العضو الذى يغفله فإنه يضعف ويتلاشى فى أنواعه بعد ذلك بفعل الوراثة فعظم الجناح فى البط الأهلى أقل من عظم الساق وزنا ، وضروع البقر والماعز

الحلوب المستولدة فى أقاليم يكثر احتلابها فيها أكبر من ضروع أنواعها غير الحلوب فى أقاليم أخرى ، مما يبين أثر استعمال العضو أو إغفاله ومن ثم وجوده فى سلالاتها أو انقراضه بعد ذلك .

وعلى ذلك يعلل « داروين » ارتخاء آذان بعض الحيوانات الداجنة نتيجة إغفال عضلات الأذن إذ أنها قليلا ما تذعر للتيقظ بوقوع خطر داهم (١٢) .

(ب) وثانى أسباب التطور عند «داروين» هو : الوراثة .

فالوراثة عامل مهم من عوامل التطور لأنها تؤدى إلى انتقال الخصائص القديمة إلى أفراد الأنواع ، بحيث تظل أفراد النوع تتناقل الخصائص بينها .

ويؤكد «داروين» أن الأعضاء التى تضمر لعدم استعمالها تتلاشى بالوراثة حتى تختفى من الأجيال المتعاقبة .

وتعاقب عمليات الوراثة جيلا بعد جيل قد يؤدى إلى وجود نوع جديد .

فبالوراثة تناقلت أجيال القردة المتطورة بخصائصها الجديدة حتى وجد نوع جديد من المخلوقات له بعض خصائص القرد وخصائص الإنسان .

وفى الحفريات التى أجراها « داوصن » و « وود ورد » فى «بلتداون» من ١٩٠٨ — ١٩١٢ م عثر على قطع من العظام تعطى صورة محيرة جدا : صورة إنسان بفك قرد ، أو قردا بجمجمة إنسان

وعندما أجريت الأبحاث على المتحجرات الأخرى التى اكتشفت معها والعائدة لحيوانات ثديية أخرى تبين أن هذا المخلوق الغريب عاش قبل خمسمائة ألف سنة ، وكان هذا تاريخا ضاربا فى القدم . إذن فإن القرد عند

تطوره وتحوله إلى إنسان تطور دماغه أولا، ومر قبل نصف مليون سنة بمرحلة « القرد الذى يفكر »، وربما يتكلم أيضا كإنسان (١٣).

وينبه داروين على حقيقة دقيقة جدا عنده هى: أن كل الكائنات العضوية التى عاشت على الأرض سواء معاصرة أو منقرضة كلها يتصل بعضها ببعض، فهناك صلة قربى بينها، ويتصل بعضها ببعض بأدق التدرجات.

وهو هنا يستدل بحالة الكائن وهو جنين، «ذلك لأن الجنين - كما يقول - هو الحيوان فى حالته الأقل تحورا، وهو هكذا يكشف عن تركيب أسلافه، ولو أن مجموعتين من الحيوانات مهما اختلفتا فى التركيب والعادات تمران بمراحل جنينية واحدة أو متشابهة لأمكننا أن نشعر بالثقة من أنهما انحدرتا من سلف واحد أو أسلاف متشابهة. وبالتالى فهما على هذا الأساس على درجة وثيقة من القربى، وإذن فالاشتراك فى التركيب الجنينى يكشف عن الاشتراك فى الأصل والتطور، إنه يكشف عن هذا الاشتراك فى الأصل، مهما تحور تركيب الفرد البالغ أو خفى »(١٤).

على أن عمليات الوراثة وإرجاع الكائنات الحية إلى أصل واحد تشترك فيه جميعا، إنما تتم على مراحل طويلة جدا فى عمر الزمن بحيث لا تظهر الانتقالات من نوع إلى نوع إلا فى مراحل متباعدة جدا ربما تقاس بالآف أو ملايين السنين.

ويقول «داروين»: «وهكذا يبدو لى أن الحقائق الرئيسية فى علم الأجنة والتى لا يسبقها فى الأهمية شىء غيرها فى التاريخ الطبيعى، أمكن تفسيرها على القاعدة التى تقول بأن التحورات البسيطة لا تظهر فى الأخلاف

المتعددة لسلف قديم واحد فى مرحلة مبكرة جدا من حياة كل منها، ولو أنها تنشأ أصلا فى أولى مراحل النمو، وأنها تورث فى مرحلة ليست مبكرة كذلك، وتزداد أهمية علم الأجنة كثيرا خصوصا ونحن نرى الآن فى الجنين صورة غامضة نوعا ما للأصل السلفى المشترك لكل طائفة كبرى من الحيوانات »(١٥).

(ج) وبعد عامل الوراثة يأتى عامل مهم من عوامل التطور عند داروين وهو: الصراع من أجل البقاء.

ورغم ما لعوامل البيئة والوراثة من أهمية إلا أن عامل الصراع على البقاء يعد أخطر العوامل فى تحقيق التطور عند «داروين»، ولذلك أفاض فى الحديث عنه وجعله العمود الفقرى فى نظريته مع ما سنتكلم عنه فيما بعد مما أسماه الانتخاب الطبيعى، هما المحور الأساسى لنظرية «داروين».

ولقد تأثر «داروين» بنظرية «مالتوس» فى معالجته للمشكلة السكانية على الأرض، وذهاب «مالتوس» إلى أن التزايد السكانى يؤدى إلى عدم كفاية ما تنتجه الأرض من غذاء.

(د) من هنا تنبه «داروين» إلى نظريته فى التناحر بين الكائنات الحية. وبتركيز شديد وتبسيط معا نستطيع أن نقول إن فكرة «داروين» هنا تقوم على أساس أن سنة التناحر سنة ضرورية فى الكون لأن الزيادة فى الكائنات وتكاثرها فى اطراد دائم، فلو لم يقلل التناحر من هذه الزيادة لضاق وجه الأرض، لا فرق فى ذلك بين كائن كثير الإنتاج أو قليله، لأن قليل الإنتاج يحقق نفس نسبة إنتاج المكثر من إنتاجه فى زمن أطول، فالمسألة لا تعدو أن تكون فارقا فى الزمن فقط.

يقول : « هناك سنة لم أعثر فى كل المباحث الطبيعية على ماينا قضها ، تقضى بأن الكائنات العضوية فاطبة تزيد زيادة طبيعية بنسبة رياضية كبيرة حتى أنه إذا لم تعمل بنسلها أسباب الفناء لملأ وجه الأرض بتولداته زوج واحد منها فى زمن يسير .

فإن الإنسان وهو من الكائنات البطيئة التوالد يتضاعف عدده فى عشرين سنة ، وبهذه النسبة القياسية وفى أقل من ألف سنة يضيق العالم بنسله » (١٦) .

وهنا يلاحظ « داروين » أن الطبيعة — كما يقول — تقوم بعملية انتخاب، وأن مايولد من الأفراد العاجزين غير القادرين على البقاء أكثر مما يقدر على البقاء، وأن الأفراد التى تمتاز على غيرها ولو بقليل من الامتياز قد تفوز بحظ البقاء والتناسل فيزيد عددها ويحفظ نوعها .

ويقول « وإنا لنعلم علم اليقين أنه لو كان فى حدوث أى تحول مهما كان طفيفا ضرر بالأنواع لبادت وللحقت بما غبر عبر القرون ، وحفظ تلك التباينات الفردية المفيدة ثم إبادة الضار منها هو ماسميته « بالانتخاب الطبيعى» أو « بقاء الأصلح »(١٧) .

ويقول «داروين» إنه لا يجب أن نغفل عن أن المناخ والغذاء والمؤثرات الأخرى مثل العلاقات التصارعية بين الكائنات تؤدى إلى إحداث تحولات فى الكائنات الحية عبر الأزمنة الطويلة .

المهم أن الانتخاب الطبيعى كما يقول : « قوة دائبة الفعل كل يوم بل كل ساعة فى استجماع التحولات العرضية فى العالم العضوى كافة نافية

كل ماكان منها مضراً ، مبقية على كل ماكان منها مفيداً صالحاً ، تعمل فى هدوء وسكون بما عملها الدائم ماسمحت الفرص فى كل زمان ومكان لتهذيب كل كائن من الكائنات بمايلائم طبيعة حالات الحياة المحيطة به ما اتصل منها بالموجودات العضوية وما اتصل بغير العضوية . غير أننا لا نلاحظ شيئاً من الترقى المنبعث عن هذا التحول البطىء حتى يظهر لنا مر الزمان ما استدبر من الدهور فى سبيل إبرازه على أننا لا نعلم من الأمر شيئاً سوى أن صور الحياة فى هذا العصر تغاير صور الزمان الماضى»(١٨).

هذه هى المعالم الرئيسة فى نظرية داروين عن النشوء والارتقاء ونستطيع أن نستنبط منها فيما يتعلق بالبحث الدينى والفلسفى عدة استنتاجات هامة :

١ — كما رأينا لم يتحدث عن ماقبل الحياة فى الخلية الأولى ومصدر الحياة فيها بل ابتدأ ملاحظاته من اللحظة الأولى التى دبت فيها الحياة فى هذه الخلية .

ومعلوم أن الآراء فى هذ المسألة لا تعدو رأيين :

(أ) القول بوجود مصدر للحياة خارج المادة من قوة محركة أو إله تختلف طبيعته عن المادة وإلا لما استطاع أن يبث الحياة والحركة فيها .

(ب) القول بالتولد الذاتى واعتدال المزاج الطبيعى ووصول خمائر المادة إلى لحظة معينة تدب فيها الحياة .

وأيا كانت نتيجة الحوار بل الصراع بين أنصار الرأيين مما لا تعلق لنا به الآن، إلا أننا نلاحظ أن داروين لم يحدد موقفه بين الرأيين فى كتابه « أصل الأنواع » .

٢ — أن «داروين» كما التزم الصمت فى تحديد موقفه من مصدر الحياة فى الخلية الأولى، فإننا رأيناه قد التزم الصمت أيضاً طوال نظريته فى تفسير تأثير عوامل الوراثة على الكائنات الحية وفى تفسير الانتخاب الطبيعى

بل إننا نراه يسند فعل الانتخاب نفسه إلى الطبيعة باعتبارها السبب الظاهر وراء عمليات الانتخاب ، دون أن يتجاوز ذلك إلى عامل آخر وراء الطبيعة .

فهل كان المفكرون الإسلاميون الذين سبقوا «داروين» إلى القول بشيء من نظرية التطور على هذا المستوى .

الحق أننا لكي نصل إلى نتيجة مثل هذه لابد أن نقف بالعرض والتحليل لآراء هؤلاء المفكرين كما فعلنا مع «داروين» .

رأى المفكرين الإسلاميين :

وأشهر القائلين بشيء من ذلك: الفارابي، ابن مسكويه ، إخوان الصفا، ابن خلدون

الفارابي :

ولقد وضع الفارابي في البداية فكرته عن صدور الموجودات كلها عن الله عز وجل بحيث يفيض كل موجود بما دونه ابتداء من الموجود الأعلى إلى أدنى الموجودات بحيث يمكن أن نرتب سلسلة الموجودات من أعلاها إلى أدناها متصلا بعضها ببعض وصادراً بعضها عن بعض

فباستثناء الموجود الأول وهو الله الذي وجوده من ذاته وعنه تصدر جميع الموجودات من أعلاها وهو العقل الأول إلى أدناها وهي الموجودات الهيولانية فيما عرف بنظرية العقول العشرة .

يقول : «فالأول ليس وجوده لأجل غيره» (١٩).

ويقول : «الموجودات كثيرة وهي مع كثرتها متفاضلة ، وجوهره جوهر يفيض منه كل وجود ، كيف كان ذلك الوجود ، كان كاملا

أو ناقصاً ، وجوهره أيضاً جوهر إذا فاضت عنه الموجودات كلها بترتيب مراتبها حصل عنه لكل موجود قسطه الذي له من الوجود ومرتبته منه فيبتدىء من أكملها ثم يتلوه ما هو أنقص منه قليلا ، ثم لا يزال بعد ذلك يتلو الأنقص فالأنقص إلى أن ينتهي إلى الموجود الذي إن تخطى عنه إلى ما دونه تخطى إلى ما لم يمكن أن يوجد أصلا فتنقطع الموجودات من الوجود » (٢٠)

وعندما يتحدث الفارابي عن مراتب الموجودات، إنما يتحدث في الواقع عن مراتب أفضلية وترتيب وجود معاً في نفس الوقت، فيقول :

« وترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولا أخسها ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه، فأخسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الأسطقسات (الماء والتراب والهواء والنار) ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ثم الحيوان الناطق وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه » (٢١) .

وفي محاولة الفارابي لتفسير كيفية نشوء الموجودات نكاد نعثر على بعض عناصر التطور، ولكنها غير واضحة .

ذلك أنه عندما يتحدث عن مراتب الأجسام الهيولانية (المادية) في الحدوث، يشير إلى أن الذي يحدث أولا هي الأسطقسات الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار) ثم يحدث ما يجانسها ويقارنها من الأجسام مثل البخارات وأصنافها مثل الغيوم والرياح وسائر ما يحدث في الجو وأيضاً مجانساتها حول الأرض وتحتها وفي الماء والنار ويحدث في الأسطقسات وفي كل واحد من سائر تلك قوى تتحرك بها من تلقاء نفسها إلى أشياء ، شأنها أن توجد لها أو بها بغير محرك من خارج ، وقوى يفعل بعضها في بعض ، وقوى يقبل بعضها فعل بعض ، ثم تفعل فيها الأجسام السماوية

ويفعل بعضها فى بعض فيحدث من اجتماع الأفعال من هذه الجهات أصناف من الاختلاطات والامتزاجات كثيرة والمقادير كثيرة مختلفة بغير تضاد ومختلفة بالتضاد فيلزم عنها وجود سائر الأجسام (٢٢).

وهكذا ينتج من حدوث العناصر الأربعة ومايجانسها من بخار وغيوم ورياح واختلاطها ببعضها قوى واستعدادات تتحرك بها من تلقاء نفسها إلى أشياء توجد لها أو بها بغير محرك من خارجها ثم تفعل فيها الأجسام السماوية ويفعل بعضها فى بعض فيحدث من اجتماع هذه الأفعال أصناف من الاختلاطات والامتزاجات يلزم عنها وجود الأجسام.

ونلحظ هنا أن الفارابى يسند وجود الموجودات إلى :

١ — قوى المادة عندما تختلط ويمتزج بعضها مع بعض، واستعداداتها الذاتية بغير محرك من الخارج .

٢ — وفى نفس الوقت فإن المادة رغم هذه الاستعدادات والقوى الذاتية لا تستطيع أن تبرز الموجودات الناتجة عنها دون فعل الأجسام السماوية التى تفعل فى المادة أفعالها فى إختلاطات المادة وامتزاجها فيؤدى إلى ظهور الموجودات .

ورغم وحدة الموجودات فى أصلها وصدورها عن واحد هو الله واجب الوجود، إلا أننا نفهم من عبارات الفارابى أن الموجودات رغم مراتب وجودها المتفاضلة فيما بينها بعضها أفضل من بعض فإنها تنشأ عن اختلاطات مستقلة للمادة، كل اختلاط منها يؤدى إلى ظهور شىء مستقل عن الآخر .

فبعد أن يحدث اختلاط العناصر الأربعة بما يماثلها من بخارات

وغيوم ورياح وماينشأ من هذا الاختلاط من أجسام كثيرة لها قوى واستعدادات ذاتية دون حاجة إلى محرك من خارجها ثم تلقيها لفعل الأجسام السماوية فيحدث من هذا الاختلاط شىء .

ويتوالى الاختلاطات تتوالى الموجودات وتتدرج بساطة وتعقيداً من حيث بعدها عن العناصر الأربعة الأولى حتى تنتهى إلى اختلاطات أكثر تركيبا وتعقيدا ، حتى يصل إلى الاختلاط الذى ينشأ فيه الإنسان .

يقول « ولا تزال تختلط اختلاطا بعد اختلاط قبله فيكون الاختلاط الثانى أبدا أكثر تركيبا مما قبله إلى أن تحدث أجسام لايمكن أن تختلط فيحدث من اختلاطها جسم آخر أبعد منها عن الأسطقسات فيقف الاختلاط

فبعض الأجسام يحدث عن الاختلاط الأول وبعضها عن الثانى وبعضها عن الثالث وبعضها عن الاختلاط الآخر .

والمعدنيات تحدث باختلاط أقرب إلى الأسطقسات وأقل تركيبا.

ويكون بعدها عن الأسطقسات برتب أقل .

ويحدث النبات باختلاط أكثر منها تركيبا وأبعد عن الأسطقسات برتب أكثر .

— والحيوان غير الناطق يحدث باختلاط أكثر تركيبا من النبات .

والإنسان وحده هو الذى يحدث عن الاختلاط الأخير »(٢٣)

ولعلنا ندرك أن الفارابى لم يصرح بنشوء هذه الاختلاطات أو ماينتج منها بعضها من بعض بحيث يسوغ لنا أن نقول إنه لم يذهب إلى أن الإنسان متحول عن الحيوان ولا إلى إن الحيوان متحول عن النبات ، أو النبات

متحول عن المعدنيات بل لكل منها اختلاط خاص أنتجه من العناصر الأربعة الأصلية ، مع مايماثلها من غازات (غيوم ورياح على حد قوله) ومع ماانضم إليها من قبيل الأجسام السماوية .

فهو بهذا يقول بالخلق المستقل لهذه الموجودات رغم أنها تعود فى منتهى أمرها إلى العناصر الأربعة وفعل الأجسام السماويه فيها .

وبهذا لايكون رأيه فى ترتيب الموجودات على هذا النسق : المعدن النبات : الحيوان : الإنسان ، قائلا بنشوء الكائنات وتحولها بعضها من بعض ، وإن كنا نعده المبشر الأول بهذا المذهب عن طريق لفته الأنظار إلى ترتيب وجود الموجودات على هذا الترتيب ، الأمر الذى جعل هذا المذهب مطروحا أمام ابن مسكويه واخوان الصفا وابن خلدون .

ابن مسكويه :

وفى حديث ابن مسكويه عن « الأجسام الطبيعية » أبان بوضوح أن هذه الأجسام الطبيعية من مادة واحدة ولكنها تتفاضل فيما بينها بقبول الصور والآثار الشريفة ، فكلما قبل الجسم صورة شريفة فإنه يرتفع بهذه الصورة إلى أفق المرتبة التى تصل إلى حدود جسم آخر فى صورة أرقى .

يقول : « إن الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها . ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة ، والصور التى تحدث فيها

فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس . صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لاتقبل تلك الصورة .

فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك الزيادة هى : الاغتذا والنمو ، والامتداد فى الأقطار

واجتذاب مايوافقه من الأرض والماء وترك مالا يوافقه ، ونقض الفضلات التى تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ .

وهذه هى الأشياء التى يتفصل بها النبات عن الجماد وهى حالة زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد » (٢٤)

ثم يمضى ابن مسكويه إلى القول بأن النبات يتدرج بعضه بحسب قبوله للصور الراقية ، فبعضه ينبت من غير زرع بمجرد امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس وذلك أقرب إلى الجماد وبعضه تظهر فيه قوة الإثمار وحفظ النوع بالبذور .

يقول : « ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفقه ويصير فى أفق الحيوان وهى كرام الشجر كالزيتون والرمان والكرم وأصناف الفواكه ، إلا أنها مختلفة القوى أعنى أن قوى ذكورها وإناثها غير متميزة فهى تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذى يتصل بأفق الحيوان ثم تزداد وتمعن فى الأفق إلى أن تصير فى أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة وذلك أنها إن قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت من أفق النبات فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر كالنخل » (٢٥)

ونفس مايقوله ابن مسكويه عن مراتب الجماد والنبات يقوله عن مراتب الحيوان ، فإن أحوال ترقى الحيوان ماتزال تتوارد عليه ، من الازدواج وطلب النسل ، وحفظ الولد والإشفاق عليه إلى آخر المراتب التى لا تزال تتزايد فى الحيوان حتى يقرب من أفق الإنسان فيقبل التأديب ويصير بقبوله للأدب ذا فضيلة يتميز بها عن سائر الحيوان .

وتتزايد فضيلة الأدب لدى الحيوان حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازى والمعلم .

ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان الذى يحاكى الإنسان من نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وماأشبهها . ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الإنسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياضة لها .

وعند هذا الحد يقول ابن مسكويه : «وهذه غاية أفق الحيوان التى إن تجاوزها ، وقيل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الإنسان الذى يقبل العقـــل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها » .

ولا يقف ابن مسكويه عند الترقى فى الموجودات إلى الإنسان كما وقف الفارابى بل يمتد بالارتقاء بالإنسان نفسه إلى مرتبة أعلى وهى مرتبة الملائكة ، إذ يقول إن الإنسان ترقى من أول مراتب الأفق الإنسانى المتصل بآخر الأفق الحيوانى كما هى مراتب الناس الذين يسكنون فى أقاصى المعمورة من الشمال والجنوب كأواخر الترك بين بسلاد يأجوج ومأجوج — كما يقول — وأواخر الزنج وأشباههم من الأمم التى لاتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة ثم تتزايد فيها قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل .

يقول : « وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل حتى واقتنائها بالإرادة والسعى والاجتهاد حتى يصل إلى آخر أفقه فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة وهذا أعلى مرتبة الإنسان وعندها تتآخذ الموجودات ويتصل أولها بآخرها »(٢٦) .

ويعنى ابن مسكويه بأول أفق الملائكة الذى يبلغه الإنسان بعد وصوله إلى آخر أفق الإنسان مقام الحكمة أو النبوة لأن الإنسان إذا صار إنسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه وصار إما حكيما تاما تأتيه الإلهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات العلوية فى التصورات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا يأتيه الوحى فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل(٢٧) .

ونستنبط مما قاله ابن مسكويه فيما تقدم ، أنه وافق الفارابى فى أمرين :

١ — أنه وأفق الفارابى فى أن الموجودات ترجع فى نهاية أمرها إلى حد واحد أو عناصر واحدة .

٢ — أن كلاهما أشار إلى أن الطبيعة لها فعل فى عملية الترقى .

وإذا كان الفارابى قد أشار إلى فعل الطبيعة حـــين قال إن اختلاط العناصر بما يشابهها من غازات (غيوم ورياح) ينشأ عنه قوى واستعدادات ذاتية دون حاجة إلى محرك من خارجها ومع ذلك ينضم اليها فعل الأجسام السماوية فيوجد الشىء معدنا كان أو نباتا أو جمادا أو حيوانا .

فقد عبر ابن مسكويه عن ذلك تعبيرا واضحا لايخفى حين قال إن الإنسان إذا ترقى إلى آخر أفقه وبلغ أول أفق الملائكة فعند هذا الوضع « ينتهى — كما يقول بالنص — فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات» .

فالترقى الذى تترقاه الموجودات إذن وإن كان من فعل الطبيعة إلا أن الله عز وجل هو الذى وكلها بالمحسوسات كما ذهب اليه هذان الفيلسوفان الإسلاميان .

وإذا كان ابن مسكويه قد وافق الفارابى فى هذين الأمرين فقد جاوزه فى أمرين آخرين : —

١ — أن الفارابى وقف بسلسلة الارتقاء عند الإنسان فجعله نهاية مدارج الترقى، لأنه ينشأ من الاختلاط الأخير.

أما ابن مسكويه فقد بلغ بسلسلة الارتقاء إلى مرتبة الملائكة حين ذكر أن الانسان باكتساب الفضائل واقتنائها يبلغ آخر أفق الإنسان حتى يصل إلى أول أفق الملائكة. وبهذا — كما قال — تتصل دائرة الوجود أولها بآخرها وإن كان ابن مسكويه قد جعل هذا الارتقاء بالإنسان على مستوى النفس الناطقة، أى ارتقاء عقليا لا ارتقاء ماديا طبيعيا جسميا.

٢ — أن الفارابى جعل ترتيب الموجودات على حسب.

(ا) الأخلاط التى يتكون منها الموجود.

(ب) فعل الأجسام السماوية فى هذا الاختلاط.

فكلما كانت الأخلاط أكثر تركيبا وأشد تعقيدا كان الموجود الذى ينشأ منها بفعل الأجسام السماوية فيها مخلوقا أرقى وأكثر تعقيدا، ولذلك جعل الاختلاط الأول الذى تنشأ منه المعادن أقرب إلا الأسطقسات والاختلاط الأخير الذى ينشأ منه الإنسان والأكثر بعدا عن هذه الأسطقصات.

ولكننا نجد ابن مسكويه لا يتحدث عن اختلاطات، وإنما يتحدث عن آفاق، وهذا تعبير جديد إذ يرى كما لاحظنا أن أدنى أفق الحيوان متصل بأفق النبات، وأعلى أفق الحيوان متصل بأول أفق الانسان، وآخر أفق الإنسان متصل بأول أفق الملائكة.

وهنا يرد السؤال: مامعنى أن آخر أفق الحيوان متصل بأفق الإنسان؟ وما حدود هذا الاتصال بين الأفقين؟

وهل يعنى هذا الاتصال أن آخر أفق الحيوان يتحول إلى أن يكون

أول أفق الإنسان؟ أو أن الاتصال لا يبلغ هذا المدى، ويكون المقصود به شيئا آخر؟.

كل هذه الأسئلة يتوقف عليها تحديد رأى ابن مسكويه.

لقد شرح ابن خلدون فيما بعد معنى هذه الكلمة التى أوردها ابن مسكويه، فقال: «ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده»(٢٨).

وهذا الشرح فى تقديرى غير كاف لأنه: مامعنى أن آخر كل أفق مستعد لأن يصير أول الأفق الذى بعده؟ هل يعنى هذا أن آخر كل مكون من هذه المكونات مستعد للتحول إلى المكون الذى بعده؟.

فآخر أفراد الحيوان رقيا مستعد للتحول إلى الانسان؟.

أو: هل يقف الأمر عند مجرد الاستعداد دون التحول بالفعل؟.

لو كان الأمر كذلك لما خرج كلام ابن مسكويه عن كونه ترتيبا للموجودات فقط دون أن يقصد تحولها بعضها عن بعض، كما قال «داروين».

أما إذا كان مقصده بالاستعداد للتحول أنه يتحول بالفعل لكان قائلا بالتطور على مذهب داروين.

ولذا نرى أن ابن خلدون لم يحل مغزى عبارة ابن مسكويه بتفسيره الاتصال بين الموجودات بمجرد الاستعداد.

وأعتقد أن الذى يحل عبارة ابن مسكويه ويشرح مرماه فى الاتصال أن نرجع إلى نص عبارته فى اتصال آفاق الموجودات وما يترتب على هذا الاتصال عنده.

ولنأخذ مثالا على اتصال الآفاق عنده: اتصال آخر أفق الانسان بأول

أفق الملائكة والحدود التى يقف عندها ارتقاء الانسان فنجده يقول :
« وإذا صار (يقصد الإنسان) إنسانا كاملا ، وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه وصار إما حكيما تاما تأتيه الإلهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية فى التصويرات العقلية ، وإما نبيا مؤيداً يأتيه الوحى على ضروب المنازل التى تكون له عند الله ذكره فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل»(٢٩).

إذن آخر أفق الانسان لا يصل إلى أن يكون ملاكا فلا يتحول الإنسان إلى ملك بل ينتهى أفقه إلى أن يكون حكيما أو نبيا.

بل إن ابن مسكويه يكاد يصرح بأن النوع أو الجنس لا يتحول إلى نوع أو جنس آخر، فهـــو يقول إن كرام الشجر التى صارت فى أفق الحيوان كالزيتون والرمان والكرم وأصناف الفواكه لا تزال تزداد وتمعن فى أفقها إلى أن تصير فى أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة وذلك أنهـا إن قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات»(٣٠).

ولنتأمل قوله «فلا تحتمل زيادة» فهناك إذن مرتبة ما بين النبات والحيوان لا يتجاوزها مهما قارب أفق الحيوان مقاربة ملحوظة، ويشير إلى هذه المرتبة بقوله عن النخل « الذى طالع أفق الحيوان ولم يبق بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة وهى الانقلاع من الأرض والسعى إلى الغذاء»(٣١).

فمعنى الاتصال الذى يقصـــده ابن مسكويه إذن ليس اتصال الأجناس بالأجناس أو الأنواع بالأنواع اتصالا يتحول فيه النوع أو الجنس إلى نوع أو جنس أعلى، بل اتصال مشابهة وتقارب بحيث تظل هناك مرتبة ما لا يتجاوزها النوع أو الجنس وإلا لو تجاوزها لتحول إلى النوع أو الجنس الأرقى لكنه لا يفعل فلا تتحول النخلة إلى حيوان كما لا يتحول القرد إلى إنسان أو الإنسان إلى ملك .

على كل حال فانه بفكرة الاتصال هذه دفع ابن مسكويه نظرية الارتقاء دفعة أقوى مما كانت عليه فى فكر الفارابى .

إخوان الصفا :

أما إخوان الصفا فهم يسهبون فى رسائلهم فى شرح تكون الجسمانيات الطبيعيات فى عدة رسائل من رسائلهم بحيث يظهر هذا الغرض محل اهتمام كبير فى فلسفتهم .

وبادىء ذى بدء فإنهم يسلمون بالعناية الإلهية الكلية ويصرحون بأن « العالم محدث مبدع مخترع كائن بعد أن لم يكن، وأن مبدعه ومخترعه ومحدثه وخالقه ومصوره هو البارى جل جلاله، أبدعه كما شاء وكيف شاء بقوله تعالى « كن » فكان (٣٢).

وعندهم أن الله تعالى وكل الطبيعة لتؤلف أجزاء هذا العالم المادى فمع أن الله تعالى « غير محتـــاج فى أفعاله إلى الأدوات والأماكن والأزمان والهيولى والحركات (٣٣) » إلا أنه تعالى جعل الطبيعة هى الفاعلة المؤلفة لأجزاء العناصر ، لأن البارى جل ثناؤه لا يباشر الأجسام بنفسه ولا يتولى الأفعال بذاته بل يأمر ملائكته الموكلين وعباده المؤمنين فيفعلون ما يؤمرون (٣٤) ».

ويقولون « إن الجواهر المعدنية مع كثرة أنواعها واختلاف طبائعها وفنون خواصها أصلها كلها وهيولاها هى الأركان الأربعة التى تسمى الأمهات وهى النار والهواء والماء والأرض ، وتبين أيضا أن الفاعل فيها والمؤلف لأجزائها والمركب لها، هى الطبيعة بإذن، الله تعالى » (٣٥).

وهم يعرفون الطبيعة بأنها « قوة النفس الكلية وهى سارية فى جميع

الأجسام التى دون فلك القمر(٣٦) ، وهى « روح العالم(٣٧) » وكل جزء فى الموجودات لديه من هذه النفس الكلية نفس جزئية وهى قوة من قوى النفس الكلية والفلكية لا هى بعينها ولا منفصلة منها كما أن جسدك جزء من أجزاء جسم العالم لا هو كله ولا هو منفصل منه »، وهم يشيرون فى هذا الصدد إلى قوله تعالى « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة(٣٨) » .

ولكى يضفى إخوان الصفا على تفكيرهم الصبغة الدينية . فقد جعلوا الطبيعة ملكا من ملائكة الله موكلة بالفعل فقالوا « واعلم أن الطبيعة إنما هى ملك من ملائكة الله المؤمنين وعباده الطائعين يفعلون ما يؤمرون لا يعصون الله ما أمرهم وهم من خشيته مشفقون »(٣٩)

وهكذا ينتهى إخوان الصفا من وضع القاعدة الأساسية لنظريتهم فى التطور فى تحديد مفهوم الطبيعة التى تفعل فى الأجسام كالأدوات والآلات لها تفعل بها وفيها ومنها فى الأماكن المتباينة والأزمان المختلفة هذه الأفعال والصنائع والأعمال من التركيب والتأليف والجمع والتفريق لأجزاء هذه الأركان الأربعة (النار والهواء والماء والأرض) من الكون والفساد والنشوء والبلى حسب دوران الأفلاك وحركات الكواكب وطوالع البروج على آفاق البلد من البر والبحر والسهل والجبل والعمران والخراب كل ذلك بإذن الله تعالى الذى خلقها ووكلها بالأركان وأيدها بالقوة الإلهية على هذه الأفعال والصنائع من تكوين المعادن والنبات والحيوان »(٤٠).

ولا يخرج إخوان الصفا بعد ذلك عن ماقرره ابن مسكويه فى التطور إذ يقولون — كما قال — بأن المعادن والنبات والحيوان لها نظام وترتيب متصل أواخرها بأوائلها فالمعادن « متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات، والنبات أيضا متصل آخره بالحيوان ، والحيوان متصل آخره بالإنسان

والإنسان متصل آخره بالملائكة ، والملائكة أيضا لها مراتب ومقامات متصلة أواخرها بأوائلها »(٤١).

فأول المعادن هو الجص مما يلى التراب ، والملح مما يلى الماء .

وأما آخر المعادن مما يلى النبات فهو الكمأة والقطن .

وأما أول مرتبة النبات وأدونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن وآخرها وأشرفها مما يلى الحيوان ، النخل .

ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما لأن هذا معدن نباتى . وذلك نبات معدنى .

وأما النخل فهو آخر المرتبة النباتية مما يلى الحيوانية وذلك أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النبات وإن كان جسمه نباتيا فالنخل نبات بالجسم حيوان بالنفس .

وأدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة هو الحلزون وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخور التى فى بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار وتلك الدودة نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة يغتذى بها جسمها فإذا أحست برطوبة واين انبسطت إليه وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذراً من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا اللمس حسب .

فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات ويقوم على ساقه قائما ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات وذلك أن النبات لها حس اللمس حسب »(٤٢)

وأما آخر رتبة الحيوانية مما يلى الإنسانية فقد فصل إخوان الصفا الحديث عنها تفصيلا يختلف شيئا ما عما قرره ابن مسكويه .

فإذا كان ابن مسكويه قد جعل القرد آخر مرتبة الحيوان مما يلى الإنسان فقد جعل إخوان الصفا هذه المرتبة من عدة وجوه .

قالوا : وذلك أن رتبة الإنسانية لما كانت معدن الفضائل وينبوع المناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان ، ولكن عدة أنواع : فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورته الجسدانية مثل القرد ، ومنها ما قاربها بالأخلاق النفسانية مثل الفرس الكريم الأخلاق ، ومثل الطير الإنسى الذى هو الحمام ، ومثل الفيل الذكى القلب ، ومثل الهزار والببغاء الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات ، ومثل النخل اللطيف الصنائع وما شاكل هذه الأجناس : وذلك أنه ما من حيوان يستعمله الناس أو أنس بالإنسان إلا وله فى نفسه شرف قرب من نفس الإنسان .

وأما القـــرد فلقرب شكل جسده من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكى أفعال النفس الإنسانية وذلك مشاهد منه متعارف بين الناس .

وأما الفرس الكريم فإنه قد بلغ من كرم أخلاقه أن صار جسده مركباً للملوك فإنه ربما بلغ من حسن أدبه أن لا يبول ولا يروث ما دام بحضرة الملك أو هو راكبه ، وله أيضاً مع ذلك ذكاء وإقدام فى الهيجاء ، وصبر على الطعن والجراح كما لا يكون للرجل الشجاع كما وصف الشاعر :

وإذا شكا مهرى إلى جراحة
عند اختلاف الطعن ، قلت له : اقدما(*)

(*) أى اقدمن ، فقلب نون التوكيد ألفاً فى حال الوقف .

لما رآنى لست أقبل عـــذره
عض الشكيم على اللجام ، وحمحما

وأما الفيل فإنه يفهم الخطاب بذكائه ويمتثل الأمر والنهى ، كما يمتثل العاقل المأمور المنتهى .

فهذه الحيوانات فى آخر مرتبة الحيوانية مما يلى رتبة الإنسانية لما يظهر منها من الفضائل الإنسانية . وأما باقى الحيوانات فما بين هاتين المرتبتين .

وإذ قد فرغنا من ذكر مراتب الحيوانية مما يلى رتبة الإنسانية فنريد أن نذكر أولا رتبة الإنسانية مما يلى رتبة الحيوانية :

إعلم أن أدون رتبة الإنسانية التى تلى الحيوانية هى رتبة الذين لا يعلمون من الأمور إلا المحسوسات . ولا يعرفون من الخيرات إلا الجسمانيات ، ولا يطلبون إلا صلاح الأجساد ، ولا يرغبون إلا فى زينة الدنيا ، ولا يتمنون إلا الخلود فيها مع علمهم أنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، ولا يشتهون من اللذات إلا الأكل والشرب مثل البهائم ، ولا يتنافسون إلا فى الجماع والنكاح مثل الخنازير والحمير ، ولا يحرصون إلا على جمع الذخائر من متاع الدنيا يجمعون ما لا يحتاجون إليه كالنمل ، ويحبون ما لا ينتفعون به كالعقاعق(*) ولا يعرفون من الزينة إلا أصباغ اللباس مثل الطاووس ، ويتحاربون على حطام الدنيا كالكلاب على الجيف ، فهؤلاء وإن كانت صورتهم الجسدانية صورة الإنسان فإن أفعال نفوسهم أفعال النفس الحيوانية والنباتية ،(٤٣) .

• • •

(*) العقاعق ، جمع عقعق ، وهو غراب أبقع طويل الذنب سمى بحكاية صوته .

ولعلنا نلحظ من هذا النص رغم طوله وقد تعمدنا إيراده بنصه أن إخوان الصفا بهذا قد جعلوا الانقلاب أو تحول شيء من حيوانات هـذه المرتبة مما يلي الإنسان إلى إنسان شيئا مستحيلا لأنه إذا كان « داروين » جوز تحود القرد إلى إنسان لأنه آخر المرتبة الحيوانية مما يلي الإنسانية ، فإن إخوان الصفا جعلوا هذه المرتبة تشمل مع القرد الفرس الكريم والفيل والببغاء وبهذا قطعوا الطريق أمام تصور أن يتحول الفرس أو الفيل أو الببغاء إلى إنسان ومثلها القرد لأنه من نفس الطبقة والمرتبة .

فترتيب الموجودات إذن عند إخوان الصفا ليس ترتيبا بيولوجيا ، وإنما هو ترتيب نفسي لا يعنى الأفضلية بالطبيعة « البيولوجية » وإنما بطبيعة النفس ولا يعنى ذلك أبداً أن يتحول حيوان إلى إنسان .

ولا يتعارض مع هذه النتيجة التي استخلصناها من كلامهم ماقد يفهم من قولهم إن أجزاء الكائنات مستحيلة جزئياتها بعضها إلى بعض حيث قالوا « إن لهذه الموجودات التي تحت فلك القمر نظاما وترتيبا أيضا في الوجود والبقاء وهي مرتبة بعضها تحت بعض متصـــل أواخرها بأوائلها كترتيب العدد وترتيب الأفلاك وبيان ذلك أنه لما كانت أجزاء العالم محيطات بعضها بعض وهي إحدى عشرة كرة تسع منها في عالم الأفلاك أولها من لدن فلك المحيط وآخرها إلى منتهى فلك القمر وآخرها متصل بأولها وكانت اثنتان منها دون فلك القمر وهي كرة النار والهواء ، وكرة الماء والأرض وهي مقسومة على أربع طبائع :

أولها : الأثير وهي نار ملتهبة دون فلك القمر ، ودونه الزمهرير الذي هو البرد المفرط ودونه الماء المفرط للرطوبة ، ودونه الأرض المفرطة اليبس ،

وهذه الأربعة محفوظة كلياتها في مراكزها ومتصل أواخرها بأوائلها

ومستحيلة جزئياتها بعضها إلى بعض وأما الكائنات منها التي هي جزئياتها فهي المعدن والنبات والحيوان ولها نظام وترتيب متصل أواخرها بأوائلها كترتيب الأفلاك والأركان ،

بيان ذلك أن المعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات والنبات أيضاً متصل آخره بالحيوان والحيوان متصل آخره بالإنسان والإنسان متصل آخره بالملائكة ، والملائكة أيضاً لها مراتب ومقامات متصلة أواخرها بأوائلها(٤٤) ،

وإذا كنا قد شرحنا معنى الاتصال عند بحث التطور عند ابن مسكويه فقد بقي أن نقف عند هذه الفكرة الجديدة التي أضافها إخوان الصفا بهذا النص إذ قالوا — كما رأينا — فيه بجانب الاتصال بين المعادن والنبات والحيوان أنها مستحيلة جزئياتها بعضها إلى بعض ، مما يظن معه أنهم يقولون بمثل ماقال داروين إن أفراد هذه الكائنات خاصة الحيوان يتحول بعضها إلى بعض .

ولكن الذي يمعن النظر في رسائل إخوان الصفا وحديثهم عن دورة الكون يدرك أن المعنى المقصود بهذه العبارة ليس تحول الكائنات أو أفراد الأنواع بعضها من بعض بل المقصود أن أحوال الكائنات (لا تركيبها الجسماني والنفسي) ترجع من الحياة إلى البلى ثم تعود في صورة أخرى كما يدور الزمان من الشتاء إلى الربيع ومن الربيع إلى الصيف ومن الصيف إلى الخريف ومن الخريف إلى الشتاء وهكذا دوران الليل والنهار .

وكذلك حال النبات وتكوينه من التراب والماء والنار والهواء ورجوعه إليها في دورانها كالدولاب وكذلك أن النبات يبدو وينشأ ويتم ويكمل حتى إذا بلغ إلى أقصى غاياته ومنتهى نهاياته رجع عند البلى والفساد إلى ماتكون منه (٤٥) .

وقد أشاروا إلى أن النبات يتحول إلى حيوان عندما يصير ورقا وحبا وثمارا يتناولها الحيوان ليتغذى به ثم يستحيل فى أبدان بعضها لحما ودما وبعضها يخرج ثفلا وسمادا ويرد إلى أصول النبات ليتغذى منه ويصير حبا وثمارا ثانيا ويتناوله الحيوان .

وأما أجسام الحيوان فإنها كلها تعود إلى التراب وتبلى وتصير ترابا ويكون منها نبات ومن النبات حيوان كما بين قبل فإذا تأمل ذلك وجد أيضاً كأنه دولاب يدور »(٤٦)

وهكذا تكتمل عناصر فكرة التطور عند إخوان الصفا من أن :

١ — المؤثر هو الله لكنه عز وجل لا يباشر الأجسام بيده .

٢ — الطبيعة هى الفاعلة، أو المؤثرة بتسخير الله عز وجل لها وتوكيلها إياها، فهى ملك موكل بالأجسام لإجراء سنن الله فى الخلق .

٣ — الكون مراتب تبدأ بالمعادن ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان وأن آخر كل منها متصل بأول مافوقه لكن لا يتحول إليه فلا يكون الجماد نباتا ولا النبات حيوانا والحيوان إنسانا إنما يتبع درجة من الترقى ولا يبقى أمامه إلا مرتبة واحدة لو تجاوزها لكان النوع الذى بعده لكن النوع الأرقى مستقل عما دونه رغم قرب الشبه بينهما .

٤ — معنى التحول الوحيد الوارد عند إخوان الصفا هو فى استحالة الحيوان إلى تراب بعد الموت ثم التراب إلى غذاء للنبات فالعناصر تتحول بعضها إلى بعض فى المعاد .

حتى إذا جاء ابن خلدون أعاد نفس النظرية ، وعلى نفس المنوال والحقائق .

« بقية البحث صفحة ٤٣٧ »